﴿ القرن التاسع عشر ﴾

« وسيئاته »

ذكرنا في الجزء الماضي حسنات القرن التاسع عشر وجرينا في ذكرها على قدر ما يحتمله المقام من الاختصار لانها لدى الحقيقة حسنات قد اتصلت من اوله الى آخره بدون انقطاع حتى ندر ان مضى يوم منه دون نفع ابتداع وفائدة اختراع ونحن نذكر الان سيئات هذا القرن بذلك الاختصار ايضاً لانها كانت والحسنات متعادلتين تقريباً وهي وان تكن اضرت بالناس كل الضرر كما كانت الحسنات بالنفع المادي الا ان الناس قد باتوا منها على ضرر الوجل والحذر فلم يجنوا الورد الا من الشوك ولم يأكلوا الشهد الا من بين ابر النحل

فلقد كان من جملة سيئات هذا القرن ان اشتدت فيه مطامع الدول اشتداداً غريباً في امتلاك الشعوب الضعيفة الهمجية وحكمها حكماً يخالف عاداتها واخلاقها من كل وجه ولذلك اشتد النفور بين نوعي الانسان الابيض والاسود فكثر القتل جداً في هذا النوع الاخير حتى كاد ينقرض لفرط اجتياح تلك الالات الجهنمية التي نزلت عليه من فردوس المدنية فاننا كنا نعتد عصور داريوس والاسكندر ونيرون وهانيبال وتيمورلنك وامثالهم عصور همجية وبربرية ونحسب ان تاريخ قتل الانسان لايكون قاصراً في الشدة الا على ذكر معركة داريوس والاسكندر او ذكر معركة بنكبرن بين الانكليز والاسكوتلنديين فجاءنا هذا القرن مضيفاً ذكر مواقع دموية هائلة جرت في الهند وافريقيا واميركا قتل فيها الابيض من الاسود نفوساً

لاتحصى في سبيل هذه المدنية فكانت وصمة عار على هذا القرن لاتمحى لان مبادئه ان لايقاوم الشر بالشر ثم لم يكن ذلك قاصراً على قتل الابيض للاسود بل جرى بين البيض انفسهم فانه اختلف حزبان من سنوات قليلة في بلدة فالبريزو باميركا الجنوبية فقتل في يوم واحد فقط ثلاثة آلاف نفس من الحزبين حتى جرت الشوارع بالدماء وطفت فوقها الاشلاء كما يطفو الزبد فوق سيل المطر وهو ماندر ان كان في عصور الظلمة والبربرية

ومن سيئات هذا القرن التي ولدها النفع كثرة الاختراع المتواصل حتى امتنع التدريج الطبيعي وتعذر الانتقال الفجائي من صناعة قديمة الى صناعة جديدة فكثر بذلك شقاء العمال والفقراء واشتد غنى الغني وفقر الفقير حتى كادت تمتنع الموازنة بين الفريقين وتنقطع سلسلة المعيشة البشرية فكان من ذلك كثرة المهاجرة والسفر مما ترتب عليه اضطرار الابيض لمفاجأة الاسود بعشرته واخلاقه فكثرت بذلك المذابح البشرية التي تقدم ذكرها فكانت تلك الاختراعات النافعة كانها طاعون او طوفان جارف اصاب ذلك النوع الاسود وما عدده بقليل مع انه قبل هذا القرن كانت المهاجرة نادرة جداً بل كانت تحسب عاراً ولا سيما في فرنسا

ثم انت لو تتبعت هذه المدنية لوجدتها كانها قصر جديد اخذت حجارته من قصر قديم وقطنه قوم جدد وتركوا سكان ذلك القصر القديم بلا ماوى ولذلك نشأت هذه البدع والتعاليم الجديدة كالفوضوية وامثالها مما يقوض هذا الاجتماع البشري لو طال امره وانتشر مذهبه على ان قتل الملوك والاغنياء كان شائعاً في كل عصر ويظهر ان المتنبي العاقل الحكيم كان فوضوياً بدليل قوله

ولا تحسبنّ المجد زقاً وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكرُ
وتضريب اعناق الملوك وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

ولكن ذلك كان ينشأ من افراد لا جامعة لهم فجمعهم هذا القرن ورتبهم احسن ترتيب حتى صاروا شيعاً ومذاهب معلومة كمذاهب الاديان وكل هذا كان منشأه على الغالب كثرة انتشار العلم وسمو افكار الانسان به سمواً عظيماً حتى صار يأنف الجمهور ان يكون محكوماً من فرد مستبد به ولذلك لانت صفاة الملوك في هذا القرن وكثر تواضعهم وحددت مراتبهم ومبالغ قواهم وحقوقهم ولكن ذلك لم يكن ليمنع الفوضى عنهم لانه لا يزال بينهم وبينها مسافة بعيدة

ثم انه في هذا القرن انتشرت الخلاعة والسكر وحرية الاخلاق والقمار الى حد لا يوصف حتى قل تناسل البشر وضاقت اخلاق باتساع اخلاق فقشا الجنون على انواعه بين كل الناس المتمدنين وكثر الانتحار والقتل الافرادي فاصبحت لا تأمن وانت في الطريق او النادي ان يقتلك رفيقك لكلمة واحدة منك تثير جنونه الكامن فيه ولم تعد تأمن اذا رأيت جارك قد اصيب بخسارة او علق بفتاة ان تسمع عنه انه انتحر مع انك كنت تعهده بالامس على اتم عقله وسكونه وقس على ذلك ما تريد يتبين لك ان فرط المدنية الحاضرة قد سهلت على الانسان كل عسير بين قوله وفعله وعلى الجملة فانه ليس في القرون الماضية قرن كهذا القرن كثر فيه عدد المنتحرين حتى بين الناس الذين كانوا يرتعدون من مرأى دجاجة مذبوحة واشد ما كان هذا الانتحار بين الجنود بسبب قواعد الجندية الجديدة ومدارسها الصارمة وهو ما لم يكن منه الا شيء قليل من قبل

وقد كان من اشد العوامل على ذلك بقرننا الحاضر كثرة انتشار السكر وتعدد انواعه حتى صارت تحسب بالمئات وقد رخص العلم والكيمياء اسعارها فصارت من ايسر مطالب الفقير واهونها عليه ولذلك فصدق كل التصديق انه لا يوجد بين تلك الستمئة مليون مسيحي في اوربا واميركا رجل واحد او امرأة واحدة الا وفي معدهم شيء من الخمر كل يوم ومتى علمت ان الخمر اصل الشر فانظر كم يحصل كل ساعة من الشرور المختلفة حتى صار ليس بالغريب لديك ان تسمع ان امرأة قتلت اولادها كلهم وهو ما لا يفعله الوحوش ولا ان رجلاً اتفق مع كل بنيه وعيلته على الانتحار فماتوا جميعهم ثم ازداد الجنون البشري في هذا العصر فتساوى اختراع الضرر فيه باختراع النفع فصرت تسمع بكيفيات قتل وانتحار غريبة جداً لم تكن تخطر على بال الانسان من قبل

ثم اذكر من اضرار هذا القرن كثرة اجتماع الانسان واحتفال المدن به الى درجة عجيبة ولذلك كثر انتشار الامراض واشتدت سرعتها وعدواها دون التمكن من توقيفها لانه لو توقفت مدينة عن مواصلة مدينة اسبوعاً واحداً لهلك اهلاها جوعاً وكان ضرر الجوع عليها اشد من ضرر المرض ولولا حسنة من حسنات هذا القرن وهي وصول الطب والجراحة بالخصوص الى ارفع الدرجات لانقرض معظم هذا العالم في هذا القرن

وعلى الجملة فان شقاء الناس في هذا القرن قد جاء مساوياً لنعيمهم هذا الى آخر درجاته وذاك الى آخرها ايضاً اي انه لم يكن من قبل واحد يملك عشرين مليون جنيه وينعم بملذات الارض كلها وهو وادع مستريح ولم تكن عيلة باسرها تموت جوعاً او تنتحر وهي بين الناس فصار كل ذلك